جريمة باربي

تحجب جريمة شارون

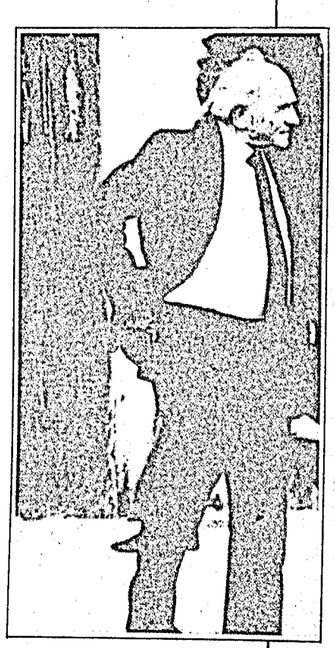

كلاوس باربي

ما بين ليلة وضحاها ، قفز كلاوس باربي من «مخبئه» في بوليفيا الى صدر الصفحات الأولى من صحف العالم بعد ٣٨ عاماً على انتهاء الحرب العالمية الثانية ، استعاد الذين عاشوا الحرب ذكريات الجنون النازي الذي اجتاح اوروبا . واستعاد الموضوع اليهودي في اوروباحيوية لم يفقدها على مر الزمن ، وان يكن بعض الوهن قد اعتراها .

على مدى ١٨ ساعة ، اعاد التلفزيون الأميركي عرض مسلسل «رياح الحرب» الذي ذكرت (نيوزويك ، ٢١/٢) أنه إعادة «للهولوكوست التي لم تزل تطارد اليهود وغير اليهود» ، وبدأت الصحف والمجلات الكبرى بفتح ملف النازية في فرنسا وغيرها ، وبالتذكير «بحساسية وضع الشعب اليهودي» .

فجأة ، أصبح باربي العجوز بعينيه الساخرتين وحجمه الضئيل موضوعاً للاثم ، ومدخلاً لنقد الذات ، معيداً الى الذهن مطالبة مناحيم بيغن قبل حوالي عامين زعماء اوروبا بالحضور الى القدس والركوع أمام نصب ضحايا النازية وطلب المغفرة من الضحايا .

لماذا ظهر باربي فجأة ؟

ولماذا في شهر شباط ١٩٨٣ بالضبط ؟ وليس قبل هذا التاريخ أو بعده .

هل هي المصادفة ؟ ربما . لكن توظيف المصادفة لا يضفي عليها كثيراً من العفوية . باربي معروف ، على الأقل ، منذ عام ١٩٧١ ، وذلك حسب رواية سيرج كلارسفيلد اليهودي الفرنسي «صياد النازيين» ، وقبل عامين أجرت «دير شبيغل» الألمانية الغربية مقابلة معه . وحسب الروايات التي ترددت في الأسبوعين الماضيين ، لباربي اتصالات ، او علاقات مع عدد من أجهزة الاستخبارات الأوروبية الغربية والأميركية .

لماذا في شباط إذن ؟

ربما في الصفات التي أطلقت على باربي والتداعيات التي رافقت واعقبت عملية اعتقاله ما يشير الى بعض الحقيقة . تصفه «نيوزويك» ، على سبيل المثال : «ضابط الغستابو الذي لا يتورع أن ينتزع طفلاً يهودياً من أحضان أمه ويرسله الى اوشفيتز» .

وفي اوروبا ، كل ما يرتبط بالنازية وبذكريات الحرب العالمية الثانية لا بد أن يؤدي بالضرورة الى طرح موضوع اليهود والعداء للسامية وجرائم الحرب .. الخ .

ان طرح هذه الموضوعات يكتسب اهمية بالغة كلما شعرت الدولة اليهودية الصهيونية بضرورة الدفاع عن صورتها ، وربما لم تتعرض صورتها لتشويه على امتداد تاريخها بحجم ما اصابها اثناء حربها العدوانية في لبنان ، وما توّجها من مجازر ضد المدنيين الفلسطينيين في المخيمات .

هل هذا يعني أن الصهيونية الدولية والدوائر المرتبطة بها والمتعاطفة معها في الغرب «فبركت» موضوع باربي للتغطية على جرائم الحرب في لبنان ، في نفس الوقت الذي نشرت فيه لجنة التحقيق «الاسرائيلية» توصياتها ؟!

الاحتمال كبير جداً ، واذا كانت الحقيقة تخالف هذا الرأي ، فإن توظيف الكيان الصهيوني والحركة الصهيونية العالمية لموضوع باربي ، لا يترك مجالاً للشك ، بأن «الفرصة السعيدة» التي تمثلت في اعتقال باربي ونقله الى فرنسا ، تبدو وكأنها هبطت على «اسرائيل» من السماء .

ظهر باربي في نفس وقت ظهور توصيات لجنة التحقيق . واذا عدنا بالذاكرة قليلاً الى فترة وقوع مجازر المخيمات ، وما أثارته على الصعيد العالمي من ردود فعل ، نكتشف كم تبدو العلاقة ضرورية بين الظهورين .

بعد المجزرة ، أعلن كرايسكي أنه يخجل من كونه يهودياً ، وعلى أغلفة المجلات الكبرى ظهرت عناوين تشير الى «أمة» تعاني من تأنيب الضمير» . مئات ومئات من التقارير والتحليلات حاولت أن تتعاطى مع المجزرة لكنها لم تستطع إعفاء «اسرائيل» من المسؤولية ، وظهرت «اسرائيل» المعروفة تقليدياً في اوروبا الغربية بأنها الرد اليهودي و «الانساني» على جرائم النازية وكأنها تعيد تاريخ النازية .

ثم جاء تشكيل لجنة التحقيق وما أسفرت عنه من نتائج ليعيد الى صورة «اسرائيل» اعتبارها لدى بلدان اوروبا الغربية ، ولم يكن من الممكن تفادي عقد مقارنة بين باربي ونتائج لجنة التحقيق . ومن يعرف نفوذ الصهيونية العالمية في أوساط وسائل الاعلام الغربية يدرك الى أي مدى يمكن تحويل مقارنة من هذا النوع لمصلحة «اسرائيل» .

بهذا الصدد تقول («الايكونوميست» ١٢ فبراير) : في هذا الوقت الذي نرى النازي يعود ليواجه العدالة في مسرح جريمته ، لكن شارون الذي سمح بأعمال سيئة ليس باربي ، و «اسرائيل» ليست المانيا النازية» .

هكذا إذن ، باربي ارتكب جريمة ، أما شارون فقد أقدم على عمل سيء ، والفرق بين الجريمة والعمل السيء كبير بما لا يقاس . ولذا تضيف المجلة نفسها : «انه الفرق بين الأعمال الخاطئة وبين البربرية ، بين التتائج والنوايا ، بين الجريمة كمصادفة ، والجريمة كسياسة قومية» .

أما «التايم» الأميركية فإنها تعقد مقارنة بين محاكمات نورمبرغ وتحقيقات اللجنة «الاسرائيلية» لتخلص الى القول أن «الضمير الاسرائيلي قبل نصيبه من المسؤولية» وأن المنتصر في نورمبرغ كان يحاكم المهزوم ، أما في «اسرائيل» فإن القضاء يحاكم رجالات الدولة ، وهذا ما دعا روجر روزنبلات كاتب المقال الرئيسي الى اعتبار تحقيقات اللجنة بمثابة «وثيقة فلسفية» تحدد الفرق بين الخطأ المقصود وغير المقصود ، لكنها تعالجه كخطأ .

وتعقد «الايكونومست» في العدد نفسه مقارنة مشابهة لتخلص الى القول فيما يشبه الوعظ الأخلاقي : «من السهل رفع عصا عدم الموافقة الأخلاقية في وجه كل الأعمال الخاطئة كبيرة كانت أم صغيرة . إن جرائم باربي الضخمة تعمل الآن كمصاً ترفع لضرب أي سياسي فرنسي يمكن أن يهتم بالتعاون البسيط مع الألمان قبل ٤٠ عاماً . ولكن في هذا

شارون

العالم غير الكامل يتعايش الناس مع كل الأشياء التي لا يوافقون عليها . إن فن العيش بهذه الطريقة يستدعي التمييز بين الجيد والرديء ، ومعرفة ما اذا كان المرء يأمل بالتحسن أم لا» .

خلاصة القول أن التحسن وقع في «اسرائيل» وأن العمل «الرديء» قد تم تفاديه ، وأن «اسرائيل» قدمت للعالم نموذجاً جديداً من العدالة والقيم الانسانية . هذا ما تريد الفقرة السابقة أن تقوله ، وما تقوله فعلاً كل أجهزة الاعلام الغربية . في الوقت نفسه ، كما تشير أجهزة الاعلام الغربية فان ماضي فرنسا تشوبه الشوائب ، ولذا قدمت «اسرائيل» نموذجاً متقدماً على فرنسا نفسها ، فرنسا المعروفة بأم العدل والحرية والقوانين .

إن المذابح تقع في كل مكان من العالم ، في الهند رددت الأنباء في الأيام الماضية سقوط مئات القتلى ، وفي كمبوديا ارتكب نظام بول بوت أفظع المجازر بحق شعبه . دفاعاً عن «العدل» ، امريكا مثلاً ، لم تشكل لجنة للتحقيق في مذبحة «ماي لي» التي قام بها الجنود الامريكيون أثناء الحرب في فيتنام .

إن اوروبا التي اندفعت الى حرب مجنونة مرتين ، والتي فرّخت النازية وغيرها تستند في وجودها الى لا عقلانية سياسية وأخلاقية ، هذا لا يعني أن شعوب وأنظمة العالم الثالث بخير ، لكنها ، أي اوروبا ، سواء بفعل التكوين الرأسمالي الاستعماري ، أم بفعل المكونات الحضارية الذاتية ، تعود مجدداً لفتح ملف النازية والعداء للسامية ، بنفس اللاعقلانية المستشرية فتتصف البعض على حساب البعض الآخر وتنصب نفسها حكماً ، في نفس الوقت الذي تعترف فيه بدور المحرض على الاثم .

فن الاعلام :

إن إعادة باربي الى فرنسا ، قد فتحت المجال اعلامياً ، وبواسطة أجهزة الاعلام والدوائر المتعاطفة مع «اسرائيل» أمام حقيقة بشاعة العداء للسامية ، والمخاطر التي تتهدد وجود اليهود ، مثلما تشير (نيوزويك ٢١/٢) «بمحض الصدفة ، انتشرت في الاسبوع الماضي أشياء تعيد للذاكرة حساسية وضع الشعب اليهودي» .

طرح هذه المسألة يحمل بعض المعاني والدلائل النفسية والسياسية الضمنية التي تحاول أجهزة الاعلام تكريسها من نوع :

١ - إن وضع اليهود يدعو للقلق بشكل دائم ، انهم عرضة للاضطهاد وللتنكيل لأسباب عديدة ، وقد تعرضوا عبر تاريخهم للمجازر ، لذا يجب ان نغفر لهم بعض هفواتهم .

٢ - إن كل ما تقوم به «اسرائيل» هو محاولة مشروعة للدفاع عن النفس ، وفي سياق هذه المحاولة قد تقع من جانبهم بعض الأخطاء .

٣ - إن كل نقد «لاسرائيل» أو تشجيع لنقدها ، يعني ضمن أمور أخرى ، تشجيع حملة العداء للسامية .

٤ - باربي هو النموذج المادي الحي على حجم الجريمة التي ارتكبت بحق اليهود . وهكذا استطاعت أجهزة الاعلام أن تحوّل موضوع باربي من مسألة تتعلق بمحاكمة أسباب الحرب العالمية الثانية الى محاكمة لما أصاب اليهود من أذى . وإذا كان صحيحاً أن النازية ارتكبت جرائم لا انسانية بحق اليهود ، إلا أنها ارتكبت نفس الجرائم بحق غيرهم .

وقد استطاعت الصهيونية السياسية ان تحوّل فكرة العداء للسامية الى سلاح بيدها . ومن الخطأ اعتبار هذا السلاح بمثابة «لعبة صهيونية» لأنه راسخ في الوجدان الثقافي الأوروبي .

وفي الوقت الذي أطنبت فيه وسائل الاعلام في وصف كيف أرسل باربي ٤٣ طفلاً يهودياً الى معسكرات الموت ، لم تعد تتذكر الأطفال الفلسطينيين في المخيمات . لقد أغلقت توصيات اللجنة ، من منظور الاعلام الغربي ، كل إدانة محتملة «لاسرائيل» وقدمت نموذجاً من العدالة تفتقر الى مثله الدول الأخرى ، أما الحرب في لبنان وغيرها ، فيبدو أن العالم ينسى بسرعة .

حسن خضر